القصر وتجلياته في البلاغة القرآنية

د . مصطفى رجب الخمري

جامعة المرقب ـ كلية التربية ـ الخمس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد

إن علم البلاغة القرآنية ، علم عظيم النفع ، جليل القدر ، اعتنى به علماء العربية على مختلف مقاصدهم ، وحفلت به كتب التفسير ، وأغنت به كتب علوم القرآن ، وغيرها من علوم الشريعة ، وكان لشرف علمي البيان والمعاني منزلة لدى علماء السلف ، والقرآن الكريم هو أعلى أسلوب وأسمى كلام ، تحققت فيه غاية البلاغة وذروة البيان ، وهو أجلُّ ما يمكن أن يبحث فيه عن أسرار الجمال اللغوي ، فعجائبه لا تنقضي ، ومنابعه لا تنضب ، وليس من حسن نظم وبراعة سبك إلا وللكتاب الكريم منها الحظ الأوفى والمقام الأعلى .

وقد كثر في كتاب الله تعدد الأساليب وتنوعها ، مراعاة لما يقتضيه أحوال المخاطبين ، إذ كان خطاباً للبشر مؤمنهم وكافرهم ، وكانت تتنزل الآيات فيه على مقتضى اختلاف تلك الأحوال ، فهي تقتضي مخالفة الظاهر في مواضع كثيرة منها ، فربما كان ظاهر الكلام غير مناسب لما يقتضيه حال المخاطب ، فيتحول السياق من طريقة إلى طريقة أخرى ، ومن وجهة إلى وجهة غيرها ، حتى تبدو تلك المخالفة في ظاهرها كأنها من المشكل ، وهي في غاية البيان ، وكأنها غامضة وهي في غاية الوضوح .

ولو ورد الكلام على غير تلك الطريقة ، لما كان مبيناً ، ولما كانت عجائبه وفرائده ، فهو لا يظهر إعجازه إلا على ذلك النظم ، ولا أحسب أن في القرآن موطنا ظاهره مشكلا إلا وراءه سر بياني عظيم ، وإن عجز عنه فهم ، وقصر دونه نظر ، فلا يحتاج موطن الإشكال في الآي إلى تأويل يلويه عن روعة نظامه ، أو تخريج يخرجه عن سر جماله ، وإنما هي مواهب يمنحها الله لمن يشاء ، ويحجبها عمن يشاء ، وهي لطائف تحتاج إلى لطف وتنقيب ، ومطالعة وتأمل ، وطول مراجعة ، ودوام استقراء وتمرس .

وباب القصر في البلاغة العربية من أدق الأبواب مسلكاً ، وأكثرها عمقاً ، يجمع فنون شتى من علوم البلاغة القرآنية ، فهو لا يقف عند واحد منها ، وإن كان الأصل فيه بحث في علم المعاني ، فيستخدم القرآن ألوانا منه عندما يراد إثبات الحكم لمذكور ونفيه عما عداه ، فقد يقصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً بحيث لا يتصف بهذه الصفة إلا ذلك الموصوف وحده وقد لا يراد هذا القصر الحقيقي بل يبغي إثبات الحكم لموصوفات يعتقد اتصافها بغير هذه الصفة ، وهكذا . وحول هذه المناقشات التي يتعرض لها البيانيون لآيات قرآنية ، سنتناول موضوع القصر من خلال بلاغة الآيات القرآنية ، فانحصرت في المقدمة التي بينت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته في البلاغة القرآنية ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة .

مدخل

القصر ـ كما عرفه البلاغيون ـ : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص . فالجملة الدالة على القصر تفيد الإثبات والنفي معاً ، تفيد إثبات شيء لشيء ونفيه عن غيره ، وغالباً ما يكون الإثبات صريحاً منصوصاً عليه ، والنفي متضمناً (1)، كقولك : إنما نجح محمد ، فقد أثبت النجاح لمحمد نصاً ، ونفى عن غيره ضمناً ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيصرح بالنفي ويكون الإثبات ضمناً ، كما في قولنا : ما أنا فعلت هذا ، حيث نفى الفعل عن المسند إليه المقدم نصاً ، وأثبت لغيره ضمناً ، وقد يصرح بالمثبت له والمنفي عنه معاً ، كما في القصر بطريق العطف نحو : ما قتل زيد بل عمرو ، وهذا الشيء الذي أثبت ونفى يسمى مقصوراً ، وهو إما أن يكون صفة ، وإما أن يكون

(1) انظر : حاشية الدسوقي ـ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ـ على مختصر السعد ــ سعد الدين مسعود التفتازاني ـ شرح تلخيص المفتاح ـ تحقيق : د . خليل إبراهيم خليل ـ منشورات محمد **علي** بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : الأولى ـ التاريخ : 1423 هـ ـ 2002 م . 13/2

موصوفاً ، والذي أثبت له يسمى مقصوراً عليه ، وهو أيضاً إما أن يكون صفة ، أو موصوفاً ، فالقصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه ، إما قصر صفة على موصوف ، أو قصر موصوف على صفة ، والشيء الذي نفى عنه المقصور قد يكون عاماً ، كما في قولنا : لا إله إلا الله ، حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى ، ونفيت عن جميع ما عداه ، ويعرف هذا القصر بالقصر الحقيقي ، وقد يكون المنفي عنه خاصاً كما في قولنا : زهير شاعر لا زياد ، فقد أثبت صفة الشعر لزهير ، ونفيت عن زياد ويعرف هذا بالقصر الإضافي . والمنفي العام إذا كان مطابقاً للواقع الخارجي كان القصر قصراً تحقيقياً ، وإذا كان مخالفاً للواقع ، قائماً على ادعاء المتكلم ، وعدم اعتداده بالمذكور ؛ كان قصراً حقيقيا ادعائياً ، أو مجازياً ، أو غير تحقيقي ؛ لبنائه على الادعاء والمبالغة .

وللقصر طرق اصطلح عليها البلاغيون ، وهي : النفي والاستثناء ، وإنما ، والتقديم ، والعطف بلا ، وبل ، ولكن ، هذه أشهر الطرق التي اصطلح جمهور البلاغيين في دلالتها على القصر (1) ، وأضاف بعضهم طريقتين أخريين ، هما : ضمير الفصل ، وتعريف ركني الجملة ، بحيث يكون أحدهما معرفاً (بأل) التي للجنس ، ولكن البلاغيين لم يلتفتوا إلا إلى تلك الطرق المشار إليها ؛ لأنها هي الغنية بالملاحظات والاعتبارات ، التي تحتاج من الدارس إلى مزيد من العناية كي يقف عليها ، ويكشف عما وراء التعبير بهذه الطرق في التراكيب الجديدة من معان وأسرار.

ومما تجدر الإشارة إليه ، والتنبيه له ، تحديد موطن المقصور والمقصر عليه ، في كل طريق من طرق القصر المشهورة ، ففي (النفي والاستثناء) المقصور عليه هو الواقع بعد أداة الاستثناء ، وفي (إنما) المقصور عليه هو المؤخر ، وفي (التقديم) المقصور عليه هو المقدم وفي العطف بـ (بل ولكن) المقصور عليه هو الواقع بعد كل منهما ، وفي العطف بـ (لا) المقصور عليه هو المقابل لما بعدها ، وفي (ضمير الفصل) المقصور عليه هو المسند إليه ، وفي (التعريف) المقصور هو المقترن (بأل) والمقصور عليه هو الخالي منها .

هذه الأسس وضوابط وضعها البلاغيون أردت أن أشير إليها ؛ لتكون في ذهن الدارس ، وهو يدرس القصر في النظم القرآني ، ويريد أن يقف على ما وراءه من معان جليلة ، وغايات يقصد إلى تحقيقها ، وقد يقتضي سياق النظم القرآني مخالفة هذه الضوابط وتلك الأسس ـ على نحو ما سنرى ـ ؛ لأنها مبنة على الغالب والأكثر لا على القطع والإطلاق .

المبحث الأول :

المطلب الأول : تفاوت طرق القصر في دلالة التقديم ومقاماته :

لقد كثر القصر في النظم القرآني ، وتنوعت طرقه ، وبين هذه الطرق فروق دقيقة ، فدلالة التقديم على القصر تختلف عن دلالة النفي والاستثناء ، ودلالة النفي والاستثناء تختلف عن دلالة إنما ، وهكذا ؛ لأن من وراء التعبير بكل طريق منها معاني وأغراضاً يؤثر التعبير به للدلالة عليها ، وما عبر فيه بهذا الطريق لا يصلح أن يعبر فيه بذلك ، ولكي يقف الدارس على تلك الفروق ، ويتجلى له ما وراء القصر في البلاغة القرآنية من معان وأغراض ، يجب عليه أن بستحضر فكره ، وأن يهيء حواسه ، ويتدبر بوعي ؛ ليحيط بالسياق الذي ورد فيه القصر ، فعندئذ يتجلى له ما وراءه ، انظر إلى التقديم في آية الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [2] لقد دل على القصر ، قصر العبادة والاستعانة على الله تعالى قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً ، في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقصراً حقيقياً غير تحقيقي في قوله﴿﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ لأنه قد يستعان بغير الله تعالى ، وقد أقر الإسلام بعض صور الاستعانة بغير الله بين المسلمين وحث عليها ، كاستعانة الجار بجاره ، والمسلم بأخيه المسلم ، ولكن لم يعتد بتلك الاستعانات في الآية الكريمة ؛ لأن المؤمن لا يستعين في عظائم الأمور إلا بالله تعالى ، والاستعانة بغير الله كلا استعانة ، أما العبادة فهي مقصورة على الله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً ، ومن أجل ذلك أُعيد الضمير (إياك) مع طلب الاستعانة ، فلم يقل : إياك نعبد ونستعين ، للإشعار بهذا الفرق الذي بين

---

(1) انظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ـ تأليف : أحمد الهاشمي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : بلا ـت التاريخ : بلا . ص : 182 .

(2) الفاتحة : الآية : 5 .

القصرين ، وإيثار التقديم في الآية الكريمة للدلالة على القصر ، دون غيره من الطرق الأخرى ، له مغزى ، ووراءه معنى ، يتجلى لنا عندما نتأمل السياق الكريم الذي وردت به الآية ونحيط به.

فالسورة الكريمة بدأت بالحمد والثناء على الله تعالى ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ثم أجريت عليه تعالى صفات الجلال تلك : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وهذه الصفات قد أخذت من المؤمن كل مأخذ ، ورقت به قرباً إلى الله تعالى ، وجعلته يذوب وينصهر في بوثقة الخضوع والخشوع ، لقد غاب في جناب ربه ، واشتشعر القرب منه تعالى ، فالتفت إليه مخلصاً إياه بالعبادة والاستعانة ، مبتدئاً بضمير الاسم الكريم (إياك) ؛ ففي الابتداء به إشعار بأنه تعالى مقدم في الوجود ، ودلالة على أن المؤمن الذي وقف على صفات الجلال في السورة وأدرك ما وراءها لا يملك إلا أن يبادر إلى الاسم الكريم (إياك) ، معلنا أن تعلقه وتوجهه أولاً وبالذات إلى المعبود ، ومنه إلى العبادة التي هي الصلة القوية بينه وبين الله ـ عز وجل ـ ، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظة جنبات ربه ، وغاب عما عداه ، ومرجع ذلك إلى تقديم الضمير (إياك) ، والابتداء به في تقديمه على فعل العبادة ، وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية ، فلم يقل : إيانا اهد ، كما قال في الأوليين ، وسبب ذلك : أن العبادة والاستعانة مختصان بالله تعالى (1)

وهكذا يتجلى لنا أن وراء التقديم والتأخير في البلاغة القرآنية أسراراً وأغراضاً ، وأن تقديم اللفظ في موضع وتأخيره في موضع آخر ، لا يكون إلا لغاية ، ولمعنى يقصد إليه ، وتلك الغايات والمعاني لا تظهر إلا لمن أمعن النظر في النظم الكريم ، وتأنى في الفهم والتدبر ، وأحاط بالسياق ومقاماته ، ووقف على المراد منه .

وإذا كان هذا هو شأن التقديم عند النظر إليه في نطاق الآيات الكريمة ، وفي ميدان النظم القرآني كله ؛ فإن التقديم في نطاق الجملة القرآنية الواحدة ، يكمن وراءه من الأغراض والأسرار ما يستلزم من الدارس أن يصبر لفهمها ، وأن يقف طويلاً للإحاطة بها وتجليتها ، فإن تغيير بناء الجملة بتقديم كلمة فيها ، وتحويلها عن مكانها ، لا يكون إلا لتحقيق غرض ، والدلالة على معنى ، ومما ينبغي ملاحظته في الآية الكريمة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الالتفات إلى الخطاب ، المشعر بالترقي من البرهان ، في إجراء الصفات المتقدمة عليه تعالى ، إلى العيان والمناجاة عن قرب ، وكأن المعلوم صار عياناً ، والمعقول مشاهداً ، والغيبة حضوراً حيث تأخذ هذه الصفات بلب القارئ وتدنيه من خالقه ، فيتعلق به وجدانه الذي ذاب في صفات الجلال ، ويتناجى عن قرب : إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة ، وفي إيثار صيغة الجمع ، أي : المتكلمين في الفعلين : (نعبد ونستعين) على صيغة الإفراد (أعبد وأستعين) إيذان بقصور العابد باشتراك سائر الموجودين له في حالة الخضوع لله رب العالمين بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك ، ولذا شرعت الجماعة ؛ لعل اندماج العبادة ، والاستعانة يكون سبباً في القبول والإجابة ، فقد تقبل عبادة المتقاصر ببركة عبادة الواصل ــ كما يقولون ــ وقد قرنت الاستعانة بالعبادة ؛ ليجمع بين ما يتقرب به العبد إلى ربه ، وما يطلبه ويحتاج إليه من جهته ، وقدمت العبادة على الاستعانة ؛ لأن تقديم المعرفة بالعبودية يكون أدعى لتحقيق الإجابة . (2) من أجل هذا كان إيثار التعبير بالتقديم للدلالة على القصر ، ولا يتأتى في هذا السياق التعبير بغيره من طرق القصر ؛ لأنه لو عبر ـ مثلا ـ بالنفي والاستثناء فقيل : ما نعبد إلا إياك ، لذهبت تلك المعاني التي اقتضى السياق الكريم تقديم ضمير الاسم الجليل للدلالة عليها .(3) ولهذا فضل ما حكى الله عن حبيبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[4]على ما حكاه عن كليمه ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[5] لابتداء بلفظ الجلالة ، وتصديره المعية به ، ومما يلاحظ في التفضيل أيضاً بالإضافة إلى التقديم ، التعبير فيما حكاه الله عن حبيبه ــ صلى

---

(1) انظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ د . فاضل صالح السمرائي ص : 14 .

(2) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ الإمام محمود بن عمر الزمخشري ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة : بلا ـ التاريخ : بلا . 14/1 .

(3) انظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ـ الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : الأولى ـ التاريخ : 1421هـ ـ 2000 م . 199/1 وما بعدها . بتصرف .

(4) التوبة : الآية : 40 .

(5) الشعراء : الآية : 62 .

الله عليه وسلم ــ بلفظ الجلالة (الله) فقد أتى بالاسم الجامع لصفات الجلال ، وأما ما حكاه عن كليمه ــ عليه السلام ـ فقد عبر فيه بلفظ (الرب) وهو اسم مشعر فيه بصفة واحدة ، صفة التربية ، وأيضاً : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قيدت فيه المعية بصفة واحدة ، وزمن واحد ، صفة الهداية ، والزمن المستقبل ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فقد أطلقت فيه المعية ، فلم تقيد بصفة ولا زمن ، فأفادت أن الله معهما في كل زمان ، حافظا ، ومعينا ، وهادياً ، وناصراً ، إلى آخر ما يمتن الله به على عبده .(1)

ومما جاء التقديم فيه للدلالة على الاختصاص قوله تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2]﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[3]﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[4] فقد دل التقديم في الآيات الكريمة على الاختصاص ، اختصاصه تعالى بالعبادة ، واختصاص المشركين بدينهم وهو الشرك ، وعبادة غير الله ، واختصاص النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدينه الذي هو التوحيد ، واختصاص المولى ـ عز وجل ــ بالمساق إليه ، فالعباد يومئذ يساقون جميعاً إليه ــ تعالى ــ وحده للحساب والجزاء . ففي قوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ قدم في كلتا الجملتين المسند على المسند إليه ؛ ليفيد قصر المسند إليه على المسند ، أي دينكم مقصور على الكون بأنه لا يتجاوزني إلى كونه لكم ؛ أي لأنهم محقق عدم إسلامهم ، فالقصر قصر إفراد ، واللام في الموضعين لشبه الملك وهو الاختصاص ، أو الاستحقاق . (5)فكل ما جاء في سورة الفاتحة من تمام الهداية ؛ لأن السورة احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية ، وعرف التاريخ من هدايات الله للناس ، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد ، والأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات على اختلاف أنواعها ، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة ، ونظمت علاقات الإنسان بربه ، وبالكون الذي يعيش فيه ، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد ، ولهذه الاعتبارات كلها ؛ لعل الله ـ تعالى ـ جعل الحكمة في فرضية قراءتها في كل ركعة من الصلوات بجميع أنواعها ، ومنها استفادة التوحيد بنوعيه : توحيد اللوهية ، وتوحيد الربوبية من القصر الماثل في قوله سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وكذا القول في تقديم الجار والمجرور في الآية الكريمة : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [6] حيث قصر ملك السموات والأرض وما فيهن على كونه لله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً ، وجاء القصر بطريق تقديم الجار والمجرور (لله) على المسند إليه﴿ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ؛ لأن السياق الكريم قد تناول إبطال مزاعم النصارى ، وقولهم : إن المسيح ابن الله ، واتخاذهم له إلهاً من دون الله ، فقد اقتضى هذا السياق إيثار الدلالة على القصر بطريق التقديم ؛ ليتصدر لفظ الجلالة (لله) الجملة إيذاناً بأنه الإله الحق ، الذي لا إله غيره ، فهو الأول المقدم في الوجود ، المستحق للألوهية ، الجدير بالعبادة ، وكل ما في السموات والأرض ملك له تبارك وتعالى ، وفي هذا دحض لمزاعم النصارى ، وإبطال لافترائهم على الله الكذب (7) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ

---

(1) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ــ تأليف محمود الألوسي البغدادي ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1422 هـ ـ 2001 م 89/1 .

(2) البقرة : الآية : 172 .

(3) الكافرون : الآية : 6 .

(4) القيامة : الآية : 30 .

(5) انظر : التحرير والتنوير . تأليف محمد الطاهر بن عاشور . الطبعة بلا . الدار التونسية للنشر . تونس . 1984 م . ، 584/30 .

(6) المائدة : الآية : 120 .

(7) انظر : دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ـ د . أحمد جمال العمري ــ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ 1406 هـ ـ 1986 1986 م . ص : 291 .

إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾[1] حيث قدم ضمير الاسم الجليل في قوله : ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ ﴾ للدلالة على قصر دعواهم عندئذ عليه تعالى ، فهم إذا أتاهم العذاب ، أو مسهم الضر لجأوا إليه تعالى بالدعاء ، ولا يدعون غيره فهو الذي يكشف ما يدعون إليه إن شاء ، الملائم في هذا السياق أن يتقدم ضمير الاسم الجليل ، وأن تتصدر به الجملة ، إبرازا له وإشعاراً بتعلق القلوب به ، وتطلعها إليه ، في هذا المقام ، مقام مس الضر ، لذا أوثر طريق التقديم للدلالة على القصر في الآية الكريمة .

وكذلك التقديم في مواضع الاستفهام ، خذ لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2] ، ففي الآية الأولى اتجه الإنكار إلى اتخاذ غير الله وليا ، وفي الآية الثانية لا يسألون عن مطلق الدعاء ، ولكن عن دعاء غير الله ، بإفراده بالدعاء ، أو بإشراكه مع الله ، فقد حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ ومعنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يكون موضعا لدعائكم ، وكذلك الحكم في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ .[3][4]

وخذ ما يفيد الاختصاص من حيث التقديم ؛ الظرف في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾[5] تجد طريقين للقصر ؛ التقديم في قوله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ والنفي والاستثناء ﴿ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ والقصر الثاني تأكيد للأول ، وقد اقتضى السياق ذلك ؛ لأنه أبرز تكذيبهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يخبرهم بأن الحكم لله وحده ، وأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس عنده ما يستعجلون به ، ولو كان عنده ما يستعجلون به لقضي الأمر بينه وبينهم .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[6] العندية هنا قد أبرزت ، فاقتضى السياق تقديمها في قوله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ للدلالة على قصر " مفاتح الغيب " على كونها عنده تعالى ، أوثر طريق التقديم إبرازاً للعندية التي أبرزها السياق ، ولما كان القوم ينكرون ويجحدون ما جاءهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ به اقتضى المقام أن يؤكد هذا القصر بقصر آخر يعبر فيه بطريق النفي والاستثناء الذي يستخدم فيما ينكره المخاطب ويجحده ، فجاء قوله تعالى : ﴿ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ مؤكدا للقصر الأول حيث دل على قصر علم الغيب على الله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً (7)

---

(1) الأنعام : الآيتان : 40 ، 41.

(2) الأنعام : الآية : 14 .

(3) انظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ـ الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـالطبعة : الثانية ـ 1428 هـ ـ 2007 م . 198/1 .

(4)القمر : الآية : 24 .

(5) الأنعام : الآية : 59 .

(6) الأنعام : الآيتان : 57 ، 58 .

(7) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ـ قدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا ـ دار القلم ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : بلا ـ التاريخ : بلا . 277/3 .

وبهذا يتجلى لنا أن القصر في البلاغة القرآنية خاضع للسياق الذي يكون فيه ، فالسياق هو الذي يقتضي استخدام هذا الطريق ، أو ذاك ، وهو الذي يحدد الاكتفاء في الدلالة على القصر بطريق واحد ، أو إتباعه بطريق آخر تأكيداً وتقريراً للدلالة على القصر ، ففي الآية الكريمة أبرز السياق وأكد ، أن العذاب الذي يستعجلون به ، تكذيباً وإنكاراً وجحوداً ، ليس عند النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بل هو عند الله تعالى ، إذ الحكم مقصور عليه وحده " إن الحكم إلا لله " واقتضى ذلك أن يقصر علم الغيب على الله تعالى ، ولذا يكون أنسب الطرق من السياق المتقدم أن يقدم الظرف (عند) وهو جاء به النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يؤكد هذا القصر بقصر آخر يعبر فيه بالنفي والاستثناء ، فجاء قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ وأوثر فيه التعبير بالنفي والاستثناء ؛ لأنه هو الطريق الذي يستخدم في الدلالة على القصر في مقامات التكذيب ، والإنكار ، والجحود .

المطلب الثاني : بين إنما والنفي والاستثناء :

من الفروق الدقيقة بين طرق القصر أن طريق (النفي والاستثناء) يعبر به فيما ينكره المخاطب ويجحده ، أو فيما ينزل هذه المنزلة لاعتبارات مناسبة ، وطريق (إنما) يعبر به في المعاني الواضحة التي يعلمها المخاطب ، وليست موضع إنكار ، أو جحود ، أو فيما ينزل تلك المنزلة لاعتبار بلاغي مناسب ، ويتجلى لنا ذلك في هذه الآيات الكريمة : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾[1]

وقال تعالى :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾[3]وقال تعالى :" إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[4] حيث عبر بالنفي والاستثناء في المعاني التي ينكرها المخاطب ويجحدها فالكفار ينكرون اتباعه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحيا يوحى إليه ، ويزعمون أن ما جاء به أساطير الأولين ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[5] ولذا أوثر التعبير بالنفي والاستثناء في قوله : ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ للدلالة على قصر اتباعه ـ صلى الله عليه وسلم ــ على الذي يوحى إليه من ربه ، ردعاً لهم ، ودفعاً لإنكارهم، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ــ ينكر أن يكون ما جاءه من عند الله تعالى أساطير الأولين ، ولذا جاء قوله : ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ بالنفي والاستثناء دالا على قصرهم ما جاء به ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كونه أساطير الأولين ، ردا لإنكاره ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك دفعا له ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، والكفرة المعاندون ، الذين أعرضوا عن الحق ، وانغمسوا في الكفر والضلال ، يعتقدون أنهم بهذا الصنيع يهلكون الرسالة وصاحبها ، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ، فجاء القصر ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بالنفي والاستثناء ، للدلالة على قصر الإهلاك على أنفسهم ، دفعاً لإنكارهم ، وإبطالا لما

---

[1] الأنعام : الآية : 50 .
[2] الأنعام : الآيتان : 25 ، 26 .
[3] الإسراء : الآية : 15 .
[4] الرعد : الآية : 7 .
[5] الفرقان : الآية : 5 .

يعتقدون ، والقصر قصر إضافي ، يفيد قلب اعتقادهم ؛ لأنهم يظنون بالنهي والنأي عن القرآن أنهم يضرون االنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؛ لئلا يتبعه الناس ، وهم إنما يهلكون أنفسهم بدوام الضلال ، وبتضليل الناس ، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس ، وفي هذه الآية تسلية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن ما أرادوا به نكايته ، إنما يضرون به أنفسهم . (1)

وكذلك نجده في قوله تعالى : ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾[2] ألا ترى أن الظالمين يخاطبون بذلك قوماً آمنوا وينكرون دعوى سحر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴾ [3] فالتخويف يبعث في النفس الشك في أنهم ينصرفون عن كفرهم ، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم .

وقوله تعالى :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾[4] فهذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة ، مجال لشك النفس في أنه خسار للظالمين ، فكان المجال مجال تاكيد ذلك بـ (ما) و (إلا). فإذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفي والإثبات ، فذلك لتقدير أمر صار به في حكم المشكوك فيه ، كقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٞ ﴾[5] فالمجيء هنا بالنفي والإثبات ؛ لأن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد خوطب خطاب من يظن أن أن يستطيع أن يحول قلوب المشركين عما هي عليه ، من الإباء والعناد ، ولا يعلم علم اليقين أن ليس في وسعه شيء أكثر من التحذير والإنذار ، فجرى الأسلوب كما يجري في خطاب الشاك ، فقيل :﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٞ ﴾. (6)

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾[7] فمعنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوث المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة ، وكلمات فيها خفية ، والذي يستخلص منها أنها إظهار الخضوع للمعبود ، واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضُرّه ملكاً ذاتياً مستمراً ، فالمعبود إله للعابد ، كما حكى الله قول فرعون : ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[8] فالحصر المستفاد من قوله : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ قصر علّة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه ، والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قصر الموصوف على الصفة ، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول (يعبدون) أي ليعبدوني وحدي لا يشركوا غيري في العبادة ، فهو رد للإشراك ، وليس هو قصراً حقيقياً ،فإنا لم نطلع على مقادير حِكَمِ الله تعالى من خلق الخلائق ، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه ؛ لأن حكم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا نحيط بها ، وذكر بعضها هنا لما يقتضي عدم وجود حكمة أخرى ، ألا ترى أن الله ذكر حكماً للخلق غير هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ﴾[9](1)

---

(1) انظر : التحرير والتنوير 183/7 .

(2) الإسراء : الآية : 47 .

(3) الإسراء : الآية : 60 .

(4) الإسراء : الآية : 82 .

(5) فاطر : الآيتان : 22 ، 23 .

(6) انظر : الكشاف : 608/3 .

(7) الذاريات : الآيتان 56 ، 57 .

(8) المؤمنون : الآية : 47 .

(9) هود الآية : 118 .

وكقوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [2] فهو يخاطب قوماً يرون في الرسول مخلوقا يملك لنفسه الضر والنفع ، ويعلم الغيب ، فكان من المناسب ـ وتلك حالهم ــ أن يأتي من أدوات القصر بالنفي والاستثناء ، يزيل بها بذور الشك من نفوس سامعيه . (3)

وكقوله تعالى : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾[4] فإن هؤلاء المشركين ؛ جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم ، وادعوا أمراً لا يجوز أن يكون لمن هو بشر ، ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه ، حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعى خلافه ، ثم جاء الجواب من الرسل الذي هو قوله تعالى : ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ (5)

كذلك ، بـ (إن) و (إلا) دون (إنما) ؛ لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه ، أن يعيد كلام الخصم على وجهه ، ويجيء به على هيئته ، ويحكيه كما هو (6). ويجيء النفي والاستثناء أيضا لبيان تأكيد الأمر في نفس قائله ، كما في قوله سبحانه :﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [7] فهذا تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة ، بأنه ما انقضى عليهم منذ وفاتهم سوى أمد يسير ، كما يجيء للإجابة على سؤال محقق ، أو مقدر لتأكيد لهذا الجواب ، كما في قوله تعالى :﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ [8] ولما كان من الواضح البين أن من اهتدى ينال ثواب هدايته ، وأن من ضل يرجع إليه إثم ضلاله ، لا أحد ينكر ذلك ، ولا يرتاب فيه ، فقد جاء القصر بـ (إنما) في قوله تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾ ؛ لأن هذا من المعاني الواضحة الجلية التي لا

---

(1) انظر : روح المعاني 22/14 بتصرف .

(2) الأعراف : الآية : 188 .

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير القرطبي . محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي . تحقيق أحمد بن عبد العليم البردوني ــ الطبعة الثانية . مكتبة الشعب بالقاهرة . 1372 هـ . . 337/7

(4) إبراهيم : الآيتان : 10 ، 12 .

(5) إبراهيم : الآية : 11 .

(6) دلائل الإعجاز في علم المعاني ـ تأليف عبد القاهر الجرجاني ـ علق عليه : السيد محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت لبنان ـالطبعة : الثالثة ـ 1422 هـ ـ 2001 م ـ ص : 256 .

(7) الإسراء الآية : 52 .

(8)المائدة : الآيتان : 116 ، 117 .

يتأتى فيها الإنكار وكذا قوله تعالى :﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ فالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم أنه منذر ، لا ينكر ذلك ، ولا يعتقد غيره ، ولذا جاء القصر بـ (إنما) على صفة الإنذار . (1)

ومن المعاني التنزيلية التي جاء فيها القصر قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (2) ، فقد جاء النفي والاستثناء في الآية الكريمة للدلالة على قصر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل الرسل من قبله ، فهو لا يجمع بين الرسالة والتبري من الهلاك ، والمخاطبون هم الصحابة ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ لا ينكرون ذلك ، ولكن لشدة حبهم للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعلقهم به ، واستعظامهم موته ، نزلوا منزلة من يعتقد أنه رسول مخلد ، لا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، وينكر أنه رسول يخلو ؛ فجاء القصر بالنفي والاستثناء دالا على قصره ــ صلى الله عليه وسلم ــ على صفة الرسالة ، لا يتجاوزها إلى التبري من الهلاك ، فهو قصر إفراد ، إذ اعتقد الصحابة تنزيلاً أنه يجمع بين الصفتين ، فقصر ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إحداهما . (3)

ووراء الدلالة على القصر بالنفي والاستثناء في الآية الكريمة معان جليلة ، حيث تلفت وتنبه إلى بشرية محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكأنهم عندما استعظموا موته قد جهلوا في دينهم أمراً جللاً أن محمداً رسول يجري عليه ما جرى على الرسل من قبله ، وينبغي عليهم أن يضلوا بعد مماته على المنهج الذي أقامه لهم ، وأن يتمسكوا به ، وأن يجتهدوا في نشر دعوته ، وتبليغ رسالته ، فلا ينقلبوا بعد موته على الأعقاب ؛ ولذا جاء بعد القصر هذا الاستفهام الإنكاري ُأ بن بي بي بر ّ ولهذا القصر بالنفي والاستثناء ، وهو قصر إفراد ـ كما أوضحنا ـ يدل على قصره ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى التبري من الهلاك .

ونقرأ قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ: مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (4) فنجد فنجد السياق يقتضي بأن القصر في الآية قصر قلب ؛ لأن المخاطبين وهم النصارى قد أنكروا أن يكون عيسى ــ عليه السلام ــ رسولاً ، وجعلوه إلهاً ، وهم بهذا قد كفروا ، وقد توعدهم الله ــ عز وجل ــ بالعذاب الأليم ، إن لم ينتهوا عما يقولون ، ويتوبون إلى الله تعالى ويستغفرونه ، ثم يأتي بعد ذلك القصر بالنفي والاستثناء ، فيدل على أنه ــ عليه السلام ــ مقصور على كونه رسولاً ، يخلو كما خلت الرسل من قبله ، لا يتجاوز تلك الصفة إلى كونه إلهاً ، كما اعتقدوا ، فالقصر قصر قلب ، وينبه النظم الكريم على بشريته ــ عليه السلام ــ بتلك الكناية الموحية ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾(5) ، وعندما نتمعن بالنظر في سياق القصرين قصر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، وقصر عيسى ــ عليه السلام ــ على كونه كذلك ، يتجلى لنا أن سياق القصر

---

(1) انظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم 277/1

(2) آل عمران : الآية : 144 .

(3) انظر : تفسير القرآن الحكيم ـ الشهير بتفسي المنار تأليف محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : الثانية ـ التاريخ : بلا . 160/4 .

(4) المائدة : الآيات : 72 ، 73 ، 74 ، 75 .

(5) انظر : روح المعاني 373/3 .

الأول فيه حثٌ للمؤمنين على المضي على المنهج ، وتحذيرهم من الارتداد بعد حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذا نرى المولى ـ عز وجل ـ مقبلا عليهم بالخطاب : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ [1] .

وأما سياق القصر الثاني : فهو وعيد شديد للنصارى الذين جعلوا عيسى ـ عليه السلام ـ إلهاً ، لقد صرح النظم القرآني بكفرهم ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ وتوعدهم بالعذاب الأليم ، والتفت عنهم فكانوا غائبين ؛ لأنهم بما صنعوا لم يكونوا أهلا للخطاب .

ونعود إلى المعاني التنزيلية فننظر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[2] حيث قصر ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صفة الإنذار لا يتجاوزها إلى صفة الهداية ، فهو قصر إفراد ، وقد جاء بطريق النفي والاستثناء ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم ذلك ، لا ينكره ولا يجهله ، تنزيلا له منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتي الإنذار والهداية ، وفي هذا القصر تصوير لحرص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هداية القوم ، حيث تفانى في دعوتهم ، وألح إلحاحاً شديداً في توجيههم وإنذارهم ، كما أن فيه تسلية له وتسرية عنه ، حيث قوبل هذا الحرص الشديد منه على هدايتهم ، بالإعراض عنه ، والرفض لدعوته ، فهم كالأموات في قبورهم ، وأنى لميت أن يسمع ويستجيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[3] فالقصر قد دل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك إلا الإنذار والتبليغ ، فتلك مهمته التي كلف بها ، أما الهداية فليست له ؛ لأنها من الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[4] فإن أعرضوا عنك فلا تحزن ؛ لأنك لا تملك تحويل قلوبهم ، فبهذا لا تستطيع هدي من أحببت من قومك ، أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله في دينك ، وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . (5)

وانظر في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ ﴾[6] تجد في هذا الحوار الذي دار بين الرسل والكفرة قصرين : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ... ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا

---

[1] آل عمران : الآيات : 142 ، 143 ، 144 .

[2] فاطر : الآيات : 22 ، 23 .

[3] فاطر : الآية : 22 .

[4] القصص : الآية : 56 .

[5] انظر : تفسير المراغي 183/20 .

[6] إبراهيم: الآيتان : 10 ، 11 .

﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ وقد أوثر التعبير بالنفي والاستثناء للدلالة على القصر في الموضعين ، مع أن المعنى واضح وليس منكراً ، فالرسل يعلمون أنهم بشر ، لا ينكرون ذلك ولا يدفعونه ، وكذلك الكفار يعلمون بشرية الرسل ، وقد أنكروا رسالتهم وجحدوها من أجل ذلك .

إن الأمر يرجع إلى اعتقاد الكفرة الفاسد ، حيث اعتقدوا أن الرسول لا يكون بشراً ، وأن الرسل بادعائهم الرسالة وهم بشر قد أنكروا بشريتهم ، واعتقدوا أنهم رسل ، من أجل هذا جاء القصر بالنفي والاستثناء ، وهو قصر قلب ، حيث قلب ما اعتقده الرسل ، فقد اعتقدوا أنهم رسل ، والرسالة لا تجتمع مع البشرية ــ في زعم الكفرة ــ ولذا جاء القصر قلباً لاعتقاد الرسل ، ودالا على قصرهم على البشرية لا يتجاوزونها إلى الرسالة التي اعتقدوها ... وهذا الزعم باطل لا محالة . (1) أما قول الرسل لهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ﴾ فمن باب مجاراة للخصم لاستمالته وإلزامه الحجة ؛ لأن من عادة عليه خصمه خلافاً في أمر لا يخالف فيه ، أن يعيد كلامه على وجهه بلفظه ومعناه استمالة للخصم ، ودلالة على أن ما ذكره غير ملزم ، فكأن الرسل ــ عليهم السلام ــ قالوا : إن ما قلتم نقره ولا ننكره ، فنحن بشر مثلكم ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة ، فالله يمن على من يشاء من عباده ، فقد سلَّم الرسل بتلك المقدمة ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ﴾ بألفاظها ومعانيها ، وفي هذا ما يؤنس الكفرة ، ويستميل نفوسهم نحو الهدى ، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة ، إذ لا منافاة عند العقول السليمة ، والاعتقادات الصحيحة ، بين الرسالة والبشرية ، فليس هناك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو فيصير أهلا للرسالة وتلقي الوحي . (2)

وخذ قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[3] تجد أن القوم يكفرون بالله ، ومصرون على عبادة الأصنام ، ويستعجلون العذاب الذي أنذرهم، هود ــ عليه السلام ــ ولكن النظم القرآني الكريم آثر التعبير(إنما) للدلالة على قصر العلم بمجيء العذاب على كونه عند الله تعالى ، وذلك للإشعار بأن هذا من الأمور المعلومة الواضحة ، التي لا ينكرها منكر ، ولا يرتاب فيها أحد ، فقد نزل الكفرة المنكرون منزلة من يعلم ولا ينكر ؛ لوضوح الأمر وجلائه ، وفي هذا من التوبيخ والتبكيت لهم ما لا يخفى ، إذ أنكروا أمراً بيناً لا يجهل ، ولا ينكر(4) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[5] قد جرى أسلوب الحوار بأسلوب الفعل الحكائي (قيل) مصوراً حال المنافقين ، فقد ركز الوصف المشهدي في هذه الآيات المباركات على الحوار ، حيث قصر المنافقون أنفسهم على صفة الإصلاح المحض ، الذي لا يشوبه شيء من وجوه الفساد ، فهو قصر إفراد ؛ لأنهم لما نهوا عن الإفساد في الأرض وتوهموا أنهم قد حكم عليهم بخلطهم الإصلاح بالإفساد ، أجابوا بأنهم مقصورون على محض الإصلاح الذي لا يشوبه شيء من وجوه الإفساد .

وقد أوثر التعبير بـ (إنما) للدلالة على القصر ، تنزيلاً لهذا الخبر منزلة الأمر المعلوم الظاهر فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر بيّن ، ينبغي ألا يجهله أحد ، وألا ينكره منكر ؛ لأنه من الوضوح بمكان ، ولذا جاء الرد عليهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ مبطلاً دعواهم بأبلغ وجه وآكده ، ؛ حيث بدأ بـ (ألا) الاستفتاحية ، التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى بعدها ، فهي لا تستخدم إلا في الأمور المهمة ، التي تحتاج إلى تهيئة وتنبيه ، أن تجيء بالقصر ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ الذي دل على قصرهم على صفة الإفساد قصر قلب لما ادعوه من اختصاصهم بالإصلاح دون الإفساد ، وقد أكد هذا النص بـ (إن) ثم جاء

---

(1) انظر : من بلاغة القرآن الكريم ـ د . أحمد أحمد بدوي ـ دار نهضة مصر للنشر ـ الطبعة السادسة ـ 2011 م ص : 122 .

(2) انظر : إعجاز القرآن وعلم المعاني ــ د . عمر الملاحويش ــ مكتبة الفلاح ــ الكويت ــ الطبعة : الأولى ــ 1407 هـ ــ 1986 م . ص : 252 .

(3) الأحقاف : الآيتان : 22 ، 23 .

(4) انظر : الكشاف 306/3 .

(5) البقرة : الآيتان : 11 ، 12 .

الاستدراك ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فدل على أن خفاء تلك الحقيقة عليهم ، مرده إلى فقدانهم الشعور ، فهم قوم لا يشعرون ، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة ما هم فيه من إفساد ، ولأقلعوا عنه .

والقصر في قوله : ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ طريقه تعريف الطرفين : أحدهما : معرف بـ (أل) التي للجنس ، والثاني : ضمير الفصل (هم) مؤكد للدلالة على القصر ، وقد اقتضى السياق أن يكون هذا القصر قصراً للموصوف ؛ هم المنافقون ، على صفة الإفساد ، وما قرره البلاغيون عند الدلالة على القصر بهذا الطريق ؛ أن المقصور عليه هو الخالي من (أل) والمقصور هو المعرف بها . (1)

المبحث الثاني

المطلب الأول : القصر بالتعريف وضمير الفصل :

وبعد أن ذكرنا القصر بالتقديم ، وبالنفي والاستثناء ، وإنما ، ووضحنا الفرق بينها في الاستعمال ؛ فقد حان أن نذكره بين غيرهم ، في القصر بالتعريف وضمير الفصل ، فقد جاء في قول الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] قصر الكتاب على اسم الإشارة (ذلك) المشار به إلى القرآن قصراً حقيقيا تحقيقياً ، والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل ، فصفة الكمال مقصورة على القرآن لا تتعداه إلى غيره ، وهذا لا يقدح في كتب الله الأخرى ، فيقال : إنها لم تبلغ الكمال ؛ لأن عدم بلوغها إياه ، إنما هو بالنسبة للقرآن ، فما عداه من كتب الله في مقابلته لم يبلغ ما بلغه .، وأنه الذي يستأهل أن بكون كتاباً ؛ كما تقول : هو الرجل : أي الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال . (3) يقول الزمخشري : " ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص ، فإن قال قائل : لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد ؟ قلت : لأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه ، فإن قلت : لم ذكر اسم الإشارة ..... ؟ قلت : وقعت الإشارة إلى (آلم) بعد ما سبق التكلم به وتقضى ، والمقتضى في حكم المتباعد ، وهذا في كل كلام ، يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك ما لاشك فيه ، ويحسب الحاسب ثم يقول : كذا وكذا وقال الله تعالى : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۚ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ ﴾[4]؛ ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حد البعيد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً : احتفظ بذلك " (5) وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال ؛ لأن الشيء النفيس عزيز على أهله ، فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صونا له عن الدروس وتناول كثرة الأيدي والابتذال ، فالكتاب هنا لما ذكر في مقام التحدي بمعارضته بما دلت عليه حروف التهجي في (آلم) كان كالشيء العزيز المنال بالنسبة إلى تناولهم إياه بالمعارضة ، أو لصدق معانيه ونفع إرشاده بعيد عمن يتناوله بهُجر القول .

وطريق القصر ـ كما هو واضح ـ تعريف الطرفين ، وأحدهما وهو المسند (الكتاب) معرف بـ (أل) التي للجنس ، وهو المقصور ، والمسند إليه الخالي من (أل) هو المقصور عليه .

والدلالة على القصر بهذا الطريق تتولد من شيء خفي لطيف ، وليست دلالة لغوية ، وذلك أن التعريف باللام يفيد الجنسية ، فقولنا : الشجاع يفيد جنس الشجاع ، ولذا اتسعت الكلمة بـ (أل) فاستغرقت الأفراد فرداً فرداً ، ولما كانت هذه الأداة (أل) تحمل هذا المعنى ،

---

(1) انظر : الوصف في القرآن الكريم ــ دراسة بلاغية ــ تأليف د . موسى سلوم عباس الأمير ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ــ الطبعة الأولى ـ 1428 هـ ــ 2007 م . ص : 266 . بتصرف .

(2) البقرة : الآيتان : 1 ، 2 .

(3) انظر : التفسير الكبير ، أو مفاتيح الغيب 17/2 .

(4) البقرة : الاية : 68 .

(5) انظر : الكشاف 32/1 .

وتفرغ على الكلمة هذا العموم الواسع ، كان إسناد ما عرف بها في نحو : زيد الشجاع ، دالا على أن زيداً هو كل شجاع ، وأن ما عداه ليس من الشجاعة في شيء ، وذلك هو معنى القصر . (1)

وتأمل الآيات الكريمة : ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2] ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[4] تجد الدلالة على القصر في كل آية منها ، حيث عرف المسند بـ (ال) التي للجنس ، فدل ذلك على قصر الفوز على أصحاب الجنة ، ونفيه عن أصحاب النار ، وهذا بيان لنفي الاستواء المصرح به في أول الآية الكريمة ، وفيها كناية عن كون المؤمنين هم أصحاب الجنة ، وكون الذين نسوا الله ، هم أهل النار، فتضمنت الآية وعداً للمتقين ، ووعيداً للفاسقين ، والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ قصر ادعائي ؛ لأن فوزهم أبديٌ ، فاعتبر فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم . (5) ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم ، فإن المفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص . فتدبر . (6)

والله عز وجل كان ولم يزل رقيباً عليهم في جميع الأحوال والأزمان ، ولكن بتوفيته عيسى ــ عليه السلام ــ وقد كان شهيداً عليهم ، يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله تعالى ، لم يبق لهم رقيب إلا الله ــ سبحانه وتعالى ـ والمعنى : أنك لما توفيتني قد صارت الوفاة حائلا بيني وبينهم ، فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم ، ولذلك قال : ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ فجاء بضمير الفصل الدال على القصر ؛ أي كنت أنت الرقيب لا أنا إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتصال ، وبذلك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت ، ولذا حسن القصر في قوله : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾

كما قصر جنس الرزق على الله تعالى في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ وواضح أن طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بـ (ال) التي للجنس ، وأن ضمير الفصل مؤكد للدلالة على القصر ، وأن المقصور عليه هو الخالي من (ال) والمقصور هو المقترن بها ، حيث دل الإسناد على قصر الجنس الذي تحمله (ال) وتفرغه في الكلمة المقترنة بها على الطرف الآخر الخالي من (ال) هذا هو الأصل في دلالة هذا الطريق على القصر .

وإظهار اسم الجلالة في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ لأن مقتضاه : إني أنا الرزَّاق ، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر ؛ لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة ؛ لأنها سيرت مسير الكلام الجامع والأمثال ، وفي هذه الآية طريق قصر لوجود ضمير الفصل ، أي : لا رزَّاق ، ولا ذا القوة ، ولا متين إلا الله ، وهو قصر إضافي أي دون الأصنام التي يعبدونها .

فالقصر قصر إفراد بتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامهم بالله منزلة من يدعي أن الأصنام شركاء لله في صفاته التي منها : الإرزاق ، والقوة ، والشدة ، فأبطل ذلك بهذا القول، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[7] [8]

---

(1) انظر دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية ــ د محمد محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ــ 1408 هـ ــ 1984 م ــ ص 85 ، 86 .

(2) الحشر: الاية : 20.

(3) المائدة : الاية : 117 .

(4) الذاريات : الاية : 58 .

(5) انظر : التحرير والتنوير 115/27 .

(6) انظر : روح المعاني 254/14 .

(7) العنكبوت : الاية : 17 .

(8) انظر : التحرير والتنوير 29/27 ، 30 .

وقد يخالف هذا الأصل فيكون المقصور عليه هو المقترن بـ (ال) إذا ما اقتضى السياق ذلك على نحو ما رأينا في الآية الكريمة : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ ﴾ رد عليهم في غرورهم وحصرهم أنفسهم في الصلاح ، فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذي قالوه ؛ لأن تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه ، فيفيد القول في الآية قصر الإفساد عليهم ، بحيث لا يوجد في غيرهم ، وذلك ينفي حصر أنفسهم في الإصلاح وينقضه ، وهو جار على قانون النقض ، وعلى أسلوب القصر الحاصل بتعريف الجنس ، وإن كان الرد قد يكفي فيه أن يقال : إنهم مفسدون ، بدون صيغة قصر ، إلا أنه قصر ليفيد ادعاء نفي الإفساد عن غيرهم وقد يفيد ذلك أن المنافقين ليسوا ممن ينتظم في عداد المصلحين ؛ لأن شأن المفسد عرفاً أن لا يكون مصلحاً ، إذ الإفساد هين الحصول ، وإنما يصد عنه الوازع ، فإذا خلع المرء عنه الوازع ، وأخذ في الإفساد ؛ هان عليه الإفساد ، ثم تكرر حتى يصبح سجية ودأباً لا يكاد يفارق موصوفه وحرف (ألا) للتنبيه إعلانا لوصفهم بالإفساد ، وقد أكد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل ودخول (إن) على الجملة وقرنها بـ (ألا) المفيدة للتنبيه ؛ وذلك من الاهتمام بالخبر وتقويته دلالةً على سخط الله تعالى عليهم ، فإن أدوات الاستفتاح مثل : ألا ، وأما ، لما كان من شأنها أن ينبه بها السامعون دلت على الاهتمام بالخبر وإشاعته وإعلانه ، فلا جرم أن تدل على أبلغية ما تضمنه الخبر من مدح ، أو ذم ، أو غيرهما ، ويدل ذلك أيضاً على كمال ظهور مضمون الجملة للعيان ؛ لأن أدوات التنبيه شاركت أسماء الإشارة في تنبيه المخاطب . (1)

وكذا القول في الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾[2] حيث ادعوا أن المؤمنين سفهاء ، فرد ذلك عليهم ، وجاء قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ دالا على قصرهم على السفاهة ، يقول السيد الشريف الجرجاني (3) مبيناً وجه المبالغة في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ ﴾ وأما وجه المبالغة في تعريف الخبر وتوسيط الفصل ، فقد قيل : الأول يفيد حصر المسند إليه على المسند والثاني يفيد تأكيد هذا الحصر ، وهذا وإن كان مناسباً لرد دعواهم الكاذبة ، فإنهم لما قصروا أنفسهم على الإصلاح قصر إفراد ، ناسب في ردهم أن يقصروا على الإفساد قصر قلب ، أي : هم مقصورون على الإفساد ، لا حظ لهم في الإصلاح " لكن يردّ عليه أن تعريف الخبر بلام الجنس يفيد حصره في المبتدأ ، كما هو مذكور في مفتاح العلوم ، والمشهور في الاستعمال ، وأن ضمير الفصل يفيد هذا الحصر أيضاً ويؤكده . (4)

إن السيد الشريف الجرجاني يثير هنا قضية تعارض الضوابط البلاغية مع دلالات التركيب في النصوص الجيدة ، فيشير إلى أن المناسب لرد دعواهم الكاذبة في الآية الكريمة ، أن يقصروا على صفة الإفساد ــ هذا ما يقتضيه السياق ــ ولكنه يتعارض مع المذكور في مفتاح العلوم للسكاكي ، ومع المشهور في الاستعمال(5)، فبهذا التناسب بين معاني السياق في النظم القرآني ، يتناقض مع ما ذكر في المفتاح ، واشتهر واشتهر في الاستعمال .

الرأي عند الباحث : أن ما يعتد به هو السياق ، ومراعاة التناسب بين معانيه ، وإن أدى ذلك إلى انخرام الضوابط البلاغية ، ومخالفة ما ذكر في المفتاح ، واشتهر في الاستعمال ؛ لأن هذه الضوابط مبنية على الأكثر والغالب ، لا على القطع والإطلاق .

فنحن نعلم أن طريق (النفي والاستثناء) يعبر به في المعاني التي يجهلها المخاطب وينكرها ، أو فيما ينزل تلك المنزلة ، وقد تجلى لنا ذلك في آيات كثيرة ، ولكنا نجد هذا الطريق قد يعبر به للدلالة على القصر فيما لا يتصور فيه إنكار المخاطب ، أو تنزله منزلة المنكر .

---

(1) نفس المصدر : 285/1 .

(2) البقرة : الآية : 13 .

(3) الشريف الجرجاني هو علي بن محمد بن علي الشريف الحسني الجرجاني ، المعروف بسيد مير شريف ، فلكي ، وفقيه ، وفيلسوف وفيلسوف لغوي ، عاش في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري ولد سنة 1339 هـ، وتوفي سنة 1414هـ .له عدة كتب منها : كتاب التعريفات ، ومصطلحات علوم القرآن ، وفقه اللغة ، وفلسفة تصوف ، وغيرها .

(4) انظر : حاشية السيد الشريف على شرح الرضي على الكافية 181/1 .

(5) انظر : مفتاح العلوم ـ تأليف أبي يعقوب يوزسف بن محمد بن علي السكاكي ـ تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة : الأولى ـ 1420هـ . 2000 م . ص 400 .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] حيث قصر الذي قاله لهم على ما أمره الله تعالى به ، وطريق القصر النفي والاستثناء ، ولا يتأتى هنا تصوير حال للمخاطب ؛ لأن عيسى ــ عليه السلام ــ يخاطب رب العزة ، وقد ألقى الخبر مؤكدا ؛ لأنه بصدد الإجابة على أمر عجيب ، ودعوى غريبة ، وهي : اتخاذه وأمه إلهين من دون الله ، إنها دعوى غريبة تقتضي التوكيد دفعاً لتلك الغرابة ، ومن أجل ذلك جاء القصر بالنفي والاستثناء ، ولا يمكن ـ كما قلت ـ تصور إنكار مخاطب ، أو تنزيل منزلة الإنكار .

وكذا نقول في الآية الكريمة : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] حيث قصرت صفة الألوهية على الله تعالى قصراً حقيقياً تحقيقياً بالنفي والاستثناء ، ولا يتأتى تصور مخاطب منكر أو منزل منزلة المنكر ، كيف ويونس ــ عليه السلام ــ يضرع إلى الله بهذا التهليل ، فإن مرجع التوكيد إلى أن يونس ــ عليه السلام ــ قد امتلأت نفسه بالخبر ، واستقر في وجدانه ، ففاض به مؤكداً كما استقر بداخله .

وقد تلطف أيوب في السؤال ، وألمح إلى ما يعانيه من بلاء ، دون أن يصرح بمطلوبه ، حيث اكتفى بذكر المسن في الضر ، وأدخل لام الجنسية على الضر ؛ لتشمل أنواعه المتقدمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها ، فكان درساً لكل من تتعاوره الأرزاء ، وتنتابه الأواء . (3)

وعندما يلتقي طريقان من طرق القصر ، فإن اتحدت دلالتهما ، كان أحدهما مؤكدا للآخر كما مر بنا في الآيات الكريمة التي اجتمع فيها ضمير الفصل وتعريف المسند بـ (ال) التي للجنس وإن اختلفت دلالتهما وجب إلغاء أحدهما وبقاء الآخر ، والذي يبقى دالا على القصر هو ما يقضي به السياق .، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [4] فقد اجتمعت (إنما) والتقديم في جملة واحدة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ وتناقضت دلالتهما على القصر ؛ لأن المقصور عليه بـ (إنما) هو المؤخر ، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم ، عندئذ ننظر في السياق ، فنجده يقتضي أن يكون المقصور (عليك) والمقصور عليه (البلاغ) إذ المراد مهمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ على البلاغ لا يتجاوزه إلى غيره ، وهذا معناه أن الدال على القصر (إنما) وأن التقديم لمجرد التوكيد وتقوية الحكم .

وفي قوله : ــ صلى الله عليه وسلم ــ "نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ إِلاَّ الْمَأْكَلُ "5) تتناقض دلالتا (إنما) و (النفي والاستثناء) إذ تدل (إنما) على قصر أكل آل محمد على كونه من هذا المال ، ويدل ((النفي والاستثناء) على قصر ما لآل محمد في هذا المال على المأكل وواضح أن المعنى يرفض دلالة (إنما) ويوجب دلالة (النفي والاستثناء) .

وبهذا يتجلى لنا أن السياق هو الذي يعتد به ، ويعول عليه ، وأنه لا ينظر إلى الضوابط البلاغية ولا يلتفت إليها عند تعارضها مع ما يقتضيه السياق في القرآن الكريم ؛ لأنها مبنية على الأكثر والغالب ، لا على القطع والإطلاق .

---

[1] المائدة : الآية : 117 .

[2] الأنبياء : الآية : 87 .

[3] انظر : إعراب القرآن الكريم وبيانه ـ محيي الدين الدرويش ــ اليمامة للطبع والنشر والتوزيع ـ دمشق ـ بيروت ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة : التاسعة ـ 1424 هـ ـ 2003 م . 67/5 .

[4] الرعد : الآية : 40 .

[5] انظر : موسوعة أطراف الحديث ـ إعداد : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان ــ الطبعة : بلا ـ التاريخ : بلا . 41341/1 وكنز العمال 604/5 .

المطلب الثاني : نوعا القصر الحقيقي :

عرفنا أن القصر الحقيقي التحقيقي هو : ما كان المنفي العام فيه مطابقاً للواقع الخرجي ، وقد مرت بنا شواهد من النظم القرآني كثيرة .

وعرفنا أيضاً أن القصر الحقيقي غير التحقيقي هو : ما كان المنفي العام فيه غير مطابق للواقع الخارجي ، فهو قائم على المبالغة والادعاء .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾[1] حيث قصرت خشية الله تعالى على العلماء قصراً حقيقيا غير تحقيقي ؛ لأن غير العالم يخشى الله ، بل قد يوجد غير عالم يكون أشد خشية لله من العالم ولكن السياق في النظم القرآني قد نوه بشأن العلماء ، وأشاد بمنزلتهم ، وحث على النظر والتأمل ؛ ولأن الخشية بقدر معرفة المخشي ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه ، وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[2] ، فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم ، فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، والقصر المستفاد من (إنما) قصر إضافي ، أي لا يخشاه الجهال ، وهم أهل الشرك ، فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل جاهلية ، أي عدم العلم ، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء ، والمشركون جاهليون نفيت عنهم خشية الله ، ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتاً كبيراً ، وتقديم مفعول (يخشى) على فاعله ؛ لأن المحصور فيهم خشية الله هم العلماء فوجب تأخيره على سنة تأخير المحصور فيه .

والمراد بالعلماء : العلماء بالله وبالشريعة ، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية ــ كما ذكرنا ــ فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها ، فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله ، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم مواقعها حق الفهم ويرعاها في مواقعها ، ويعلم عواقبها من خير أو شر ، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ، ومقصد شرعه ، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال ، أو في بعض الأوقات لداعي شهوة ، أو هوى ، أو تعجل نفع دنيوي ؛ كان حال المخالفة موقنا أنه مورط فيما لا يحمد عقباه ، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع ، أو الإقلال ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه ، فإن من يراه يقول : " لو علم بما علم " ، وغير العالم إن اهتدى بالعلماء ، فسعيه مثل سعي العلماء ، وخشيته متولدة عن خشية العلماء .

ثم قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾ تكميل للدلالة على استغناء الله تعالى عن إيمان المشركين ولكنه يريد لهم الخير ، فذكر بما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء إن تابوا إلى ما دعاهم إليه ، على أن في صفة (غفور) حظاً عظيماً لأحد طرفي القصر وهم العلماء ، أي غفور لهم . . (3) ونقرأ سياق الآية الكريمة : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾ فخشية غير العالم لا يعتد بها في مثل هذا السياق الذي يحث على النظر ، وتدبر آيات الله ، وعظيم صنعه ، وبديع خلقه ، ولذا قصرت الخشية على العلماء قصر حقيقيا غير تحقيقي .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[4] هذا القول جاء على لسان موسى ــ عليه السلام ــ صورته خبر ، ومعناه إنشاء ، فهو من بث الحزن والشكوى إلى الله ، والاعتذار إليه ، مع رقة القلب التي تستجلب الرحمة ، وتستنزل النصرة ، وكذا كل خبر يخاطب به علام الغيوب يقصد به معنى سوى إفادة الحكم ، أو لازمه ،

---

[1] فاطر : الآية : 27 .

[2] الحجرات : الآية : 13 .

[3] انظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب 20/26 .

[4] المائدة : الآية :25 .

فليس قوله رداً لما أمر الله تعالى به ، ولا اعتذاراً عن عدم الدخول ، وإنما عدم الرضا من فسق قومه عن أمره ، الذي يبلغه عن ربه ، ومعنى الآية : إنني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسي ، وأمر أخي ، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليسر والعسر ، والرضا والمكره ، ولهذا طلب من ربه : ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾؛ لأنه خشي أن يصيبهم عذاب في الدنيا ، فيهلك الجميع ، فطلب النجاة ، ولا يصح أن يريد الفرق بينهم في الآخرة ؛ لأنه معلوم أن الله لا يؤاخذ البريء بذنب المجرم ؛ ولأن براءة موسى وأخيه من الرضا بما فعله قومهم أمر يعلمه الله ، ويجوز أن يراد بالفرق بينهم الحكم بينهم وإيقاف الضالين على غلطهم . (1) ولهذا قصرت الملكية على نفسه وأخيه ، ونفيت عن كل من عداهما ، قصراً حقيقيا غير تحقيقي ؛ لأن السياق يدل على أنه كان هناك رجلان أنعم الله عليهما ولم يذكرهما موسى ــ عليه السلام ــ وإن كانا يوافقانه إذا دعا لما رأى من تلون القوم ، وتقلب آرائهم ولكن موسى ــ عليه السلام ــ لم يعتد بهما فكأنه لم يثق بهما ، ولم يعتمد عليها ؛ نظراً لتقلب قومه وتقلب أحوالهم .

وإن في هذا العقاب الإلهي لعبرة لأولي الألباب ، يستفيدون منها أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد ، تذهب أخلاقها ، ويذهب بأسها ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، وتأنس بالمهانة ، وإذا طال عليها الأمد ، أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعاً خِلْقِيَّة لها ، فإذا خرجوا من بيئتهم ورُفع عنهم نير الظلم والاستعباد ؛ حنُّوا إلى ما كانوا فيه ، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه ، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون ، ويجرون عليه من خير ، أو شر ، ولهذا كله حسن القصر ، حتى يخرج موسى ــ عليه السلام ــ وأخوه من العقاب الإلهي ، فكان قصرا حقيقيا غير تحقيقي .

أما النوع الثاني من القصر ، وهو القصر الحقيقي التحقيقي ، فقد جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ جاء القصر في المعاني التي أنكرها المشركون وجحدوها ، وفي الأفعال التي ادعوا نسبتها إلى غير الله تعالى ، وقد جاء القصر بالتقديم في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ التعبير عن الله بلفظ (ربك) تشريف للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعريض بالتهديد لمكذبيه ؛ لأن شأن الرب الدفاع عن مربوبه ، وفي الآية معنى آخر ؛ وهو أن يكون المنتهى مجاز عن انتهاء السير ؛ بمعنى الوقوف لأن الوقوف انتهاء سير السائر ، ويكون الوقوف تمثيلا لحال المطيع لأمر الله ، تشبيها لأمر الله بالحد الذي يحدد به الأرض ، كما عبر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحد في قوله تعالى :﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(2) والمعنى ـ والله أعلم ـ التحذير من المخالفة لم أَمَرَ الله ونَهَى ، حيث قصرت قصر الانتهاء على كونه إلى ربك ، وقصرت النشأة الأخرى عليه تعالى ، والمشركون قد أنكروا ذلك ، أنكروا البعث ، وأنكروا الرجوع إليه تبارك وتعالى . فجاء قصراً حقيقيا تحقيقياً .

وجاء القصر بضمير الفصل في قوله : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الحياة الدنيا ، وضمير (هو) عائد إلى (ربك) من قوله : (وأن إلى ربك المنتهى ، والضحك : أثر سرور النفس ، والبكاء : أثر الحزن ، وكل من الضحك والبكاء من خواص الإنسان ، وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال عظيم في النفس ، ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور ؛ لأنه إذا لم يكن حزيناً مغموماً كان مسروراً ؛ لأن الله خلق السرور والانشراح ملازمًا للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه ؛ لأنه إذا كان سالماً كان نشيط الأعصاب ، وذلك النشاط ينشأ عنه المسرة في الجملة ، وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة ، فذكر الضحك والبكاء ، يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز ، ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ، ويذكر بالصانع الحكيم ، وإنما جرى ذكر هذا في هذا المقام ؛ لمناسبة أن الجزاء الأوفى لسعي الناس : بعضه سارٌّ لفريق ، وبعضه محزن لفريق آخر .

---

(1) انظر : تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار 335/6 .

(2) البقرة : الآية :229 .

وأفاد ضمير الفصل قصراً لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى ؛ لإبطال الشريك في التصرف فأبطل الشركة في الإلهية ، وهو قصر إفراد ؛ لأن المقصود نفي تصرف غير الله تعالى ، وإن كان هذا القصر بالنظر إلى نفس الأمر قصراً حقيقيا تحقيقيا ؛ لإبطال معتقد المشركين . (1)

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ انتقال أيضاً من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرة والحزن ، وهما حالتان لا تخلو عن إحداهما نفس الإنسان إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة ، فضمير الفصل في هذه الآية مثله في الآية السابقة ، رداً على أهل الجاهلية الذين يسندون الإحياء والإماتة إلى الدهر فقالوا : ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾(2) فليس المراد الحياة الآخرة ؛ لأن المتحدث عنهم لا يؤمنون بها . وفي الآيتين السابقتين محسن بديعي طباق ، حيث طابق ما بين الضحك والبكاء ، وما بين الحياة والموت ، وكلا الاثنين سر جمالهما : إظهار المعنى بالتضاد .

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ .ومعنى (أغنى) جعل غنيا أي أعطاه الغنى ويظهر أن معنى (أقنى)

ضد معنى (أغنى مراعاة لنظائره التي زاوجت بين الضدين ، اللذين ظهر فيهما محسن الطباق ، من قوله : (أضحك وأبكى) (أمات وأحيا) (الذكر والأنثى) هذا الطباق المتعدد في السورة جميعها ؛ يدخل في باب المقابلة ، وقد زاد هذا الطباق حسنا أنه أتى في معرض التسجيع الفصيح ؛ لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي . مع سر جماله في إظهار المعنى بالتضاد .

والإتيان بضمير الفصل لقصر صفة الأغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره ، وهو قصر مجازي لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائله العادية ، مع عدم التنبه إلى أن الله أوجد مواد الإرزاق وأسبابها ، وصرف موانعها ، وضمير الفصل يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى ، وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى ، أي هو رب تلك الآثار ومقدرها ، وليست الشعرى ربة تلك الاثار المسندة إليها في مزاعمهم ، وليس لقصر كون رب الشعرى على الله تعالى دون غيره ؛ لأنهم لم يعتقدوا أن للشعرى رباً غير الله ضرورة أن منهم من يزعم أن الشعرى ربةٌ معبودة ، ومنهم من يعتقد أنها تتصرف بقطع النظر عن صفتها ، فهذه الأفعال قد ادعى المشركون نسبتها إلى غير الله ، وعبد بعضهم الشعرى من دون الله ، فجاء قصرها بضمير الفصل عليه تعالى ، والقصر في جميع تلك المواطن قصر حقيقي تحقيقي . أما الأفعال التي لم يدع نسبتها إلى غير الله تعالى ، وهي : ﴿خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ. ﴾.. ﴿أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ فقد جاءت مثبتة له تعالى بلا قصر ؛ لأنه ليس هناك ما يقتضي قصرها عليه ــ عز وجل ــ حيث لم ينكرها له أحد ، ولم يدع نسبتها إلى غيره ـ تعالى ـ مدع . (3)

المطلب الثالث : العطف (بلا ، وبل ، ولكن) :

كما هو معلوم عند البلغاء أن (بل ـ ولكن) يشترط في كل منهما أن تسبق بنفي أو نهي ، وأن يكون المعطوف بهما مفرداً ، وألا تقترن (لكن) بالواو . هذه هي القعدة العامة .

أما (لا) فيشترط في القصر بها : إفراد معطوفيها ، وأن تسبق بإثبات ، وألا يكون ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها . وهذا القصر بهذه الطريقة موجود بكثرة في القرآن الكريم .

فلنتأمل قول الله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾(4) حيث قصر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كونه رسول الله ، وخاتم النبيين ، لا يتجاوز ذلك إلى أبوة أحد من الرجال ، وقد جاء القصر بطريق العطف ؛ لأنه أقوى طرق القصر ، إذ صرح فيه بالطرفين المثبت والمنفي معاً ، والأمر يحتاج إلى هذا التوكيد ؛ لأنه يتعلق بقضية التبني ، وكانت عادة العرب معاملة الابن المتبنى معاملة الابن من الصلب ، فحرم الإسلام ذلك ، وأمر أن يدعى المتبنى

(1) انظر : روح المعاني 67/14 .
(2) الجاثية : الآية : 24 .
(3) انظر : الإتقان 153/3 .
(4) الأحزاب : الآية :40 .

لأبيه ، قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾[1]

وقد جاء التحريم ممثلا في زواج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من زينب بنت جحش ، بعد أن قضى زيد منها وطراً ، وزيد هو زيد بن حارثة مولى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان هذا الزواج تشريعاً للأمة .

لقد كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدرك مدى تأصل تلك العادة في نفوس الناس ، فكان يقول لزيد : ﴿ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[2] فعاتبه ربه ـ عز وجل فقال :﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾[3] لما كان الأمر على هذه الدرجة من الأهمية ، فقد جاء تقرير هذه الحقيقة بطريق العطف الذي هو أقوى أنواع طرق القصر ؛ ليؤكد في النفوس أن محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ رسول الله وخاتم النبيين ، لا يتجاوز ذلك إلى أبوة أحد على جهة الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبين ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، ولكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبو أمته جميعاً ، فيما يجب له من التعظيم والتوقير ، وأزواجه أمهاتهم فيما يجب لهن من التقدير والتعظيم ، وتحريم نكاحهن من بعده ، وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وحكم زيد بن حارثة حكم الواحد من الأمة في ذلك ، فليس هنالك ما يثير العجب ، ويدعو للغرابة عندما يتزوج ــ صلى الله عليه وسلم ــ من زينب بنت جحش مطلقة زيد . [4]

ومن جانب آخر من فن البلاغة في قوله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ الآية : فن التلفيف ، وفي محيط المحيط : التلفيف عند البلغاء : هو التناسب ، وهو عبارة عن إخراج الكلام مخرج التعليم بحكم ، أو أدب لم يرد المتكلم ذكره ، وإنما قصد ذكر حكم داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرح بتعليمه ، وأوضح من هذا أن يقال : إنه جواب عام عن نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها كلها ، فيعدل المجيب عن الجواب الخاص عما سئل عنه من تبيين ذلك النوع إلى جواب عام يتضمن الإبانة على الحكم المسؤول عنه وعن غيره ، مما تدعو الحاجة إلى بيانه ، فإن قوله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ ... إلخ جواب عن سؤال مقدر ، وهو قول القائل : أليس محمد أبا زيد بن حارثة ؟ فأتى الجواب يقول : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ وكان مقتضى الجواب أن يقول : " ما كان محمد أبا زيد " وكان يكفي أن يقال ذلك ، ولكنه عدل عنه ترشيحاً للإخبار بأن محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاتم النبيين ، ولا يتم هذا الترشيح إلا بنفي أبوته لأحد من الرجال ، فإنه لا يكون خاتم النبيين إلا بشرط أن لا يكون له ولد قد بلغ ، فلا يرد أن له : الطاهر ، والطيب ، والقاسم ؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ثم احتاط لذلك بقوله : ﴿ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ فأضاف الرجال إليهم لا إليه ، فالتف المعنى الخاص في المعنى العام ، وأفاد نفي الأبوة الكلية لأحد من رجالهم ، وانطوى في ذلك نفي الأبوة لزيد، ثم إن هناك تلفيفاً آخر ، وهو قوله : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فعدل عن لفظ نبي ، إلى لفظة رسول لزيادة المدح ؛ لأن كل رسول نبي ولا العكس ، فهذا تلفيف بعد تلفيف . (5)

---

(1) الأحزاب : الآية :5 .

(2) الأحزاب : الآية :37 .

(3) الأحزاب : الآية :37 .

(4) انظر : الكشاف 301/3 .

(5) انظر : إعراب القرآن وبيانه ، للدرويش 6/ 182 .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [1]

أي أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب :

1 . ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ كقوم عاد ، إذ قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصباء ، فألقتها عليهم .

2 . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم يؤمنوا ، بل استمروا في طغيانهم وكفرهم ، وهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه ، فجاءتهم صيحة أخمدت منهم الأصوات والحركات .

3 . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ كقارون الذي طغى وبغى ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحاً ، وتاه بنفسه عجباً ، فخسف الله به وبداره الأرض .

4 . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ ﴾ كقوم نوح أغرقوا بالطوفان ، وفرعون وهامان وجنودهما أغرقوا في صبيحة يوم واحد . (2) فجاء قصر العذاب النازل بهم على ما ارتكبوا ، ونفى عن الله ــ عز وجل ــ الظلم ، فالعذاب الذي أخذهم الله به الله تعالى ، سببه ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي ، والبغي والطغيان ، هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد الهلاك ، وما ربك بظلام للعبيد .

وقد جاء القصر بطريق العطف تأكيداً لهذه الحقيقة ، وكشفاً لعاقبة البغي والطغيان في الكفر والضلال ، وحثاً على امتثال أمر الله ، واتباع الصراط المستقيم ، والبعد عن سبل الضلال والغواية ، ففي ذلك الفوز والنجاة . ثم بين هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ، ولم تكن ظلماً لهم فقال :﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وفي العطف بـ (لا) مثل : أنا أفعل هذا رغبة لا رهبة . فقد نص هذا على أن النفي والإثبات معاً ، بخلاف بقية الطرائق التي يفهم النفي فيها بالمعنى . أما (بل) لا تفيد العطف إلا إذا وقعت بعد نفي ، مثل : ما جاءني زيد بل خالد ، وأما بعد الإثبات لا تفيد ، كقولك : جاء زيد بل خالد ؛ لأنك نقلت حكم المجيء إلى التابع الذي هو خالد وجعلت المتبوع الذي هو زيد في حكم المسكوت عنه ، وبذلك تفيد الجملة الإثبات فقط ؛ لأن المسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات .

فالفرق بين (لا) و (لكن) من حيث الدلالة في الإثبات والنفي ؛ فالذي بعد (لا) منفي عنه الحكم ، والذي بعد (لكن) ثابت له الحكم .

ومن خلال دراستي لأسلوب القصر أرى : أنه من المعلوم أن الكلام يوجه لمن يراد إعلامه بمضمونه وهو خالي الذهن ، أو يراد تصحيح تصوره الذي هو مخطئٌ فيه بحسب اعتقاده موجه القول ، أو يراد رفع الشك وتردده ، ويستخلص من هذا أربعة أقسام في القصر :

القسم الأول : أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجهاً لخالي الذهن ، أو إعلاناً عن اعتقاد المتكلم ، أو اعترافه بمضمون ما يقول ، أو تعبيره عما في نفسه بمجرد الإعلام به ، وأسميه إعلامياً ابتدائياً .

وأشير إلى أن البلاغيين لم يذكروا هذا القسم اكتفاءً بالمفاهيم العامة المعروفة من توجيه الكلام .

القسم الثاني : أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجهاً لمن يراد إعلامه بخطأ تصوره مشاركة غير المقصور عليه المقصور ، ويسمي البلاغيون هذا : " قصر إفراد " .

مثاله : يعتقد المشرك أن الأرباب التي يؤمن بها تَخْلُقُ ، كما أن الله تعالى يَخْلُقُ ، فنقول له : " لا خالق إلا الله " هذا قصر حقيقي ، من قصر الصفة على الموصوف ، ويراد منه إفراد الله ـ عز وجل ـ بالخلق ، ونفي صفة الخلق عن كل ما سواه ، ومن سواه من الشركاء ؛ لتعريف المخالف بأنه مخطئ في تصوره مشاركة غير الله لِله في الخلق ، فهو : " قصر إفراد " .

---

[1] العنكبوت : الآية : 40 .

[2] انظر : تفسير المراغي ـ تأليف أحمد مصطفى المراغي ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1418 هـ ـ 1998 . 20/237 .

القسم الثالث : أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهاً لمن أراد إعلامه بخطأ تصوره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه ، ويسمي البلاغيون هذا : " قصر قلب " .

مثاله : يعتقد الملحد الذي يجحد وجود الله - عز وجل - وينسب أحداث الكون المتقنة العجيبة إلى التطور الذاتي ، وإلى المصادفات ، فنقول له : " لا محدث لأحداث الكون إلا الله " هذا قصر حقيقي ، من قصر الصفة التي هي : إحداث أحداث الكون على موصوف واحد هو الله - عز وجل - ويراد منه قلب تصور من يوجه له الخطاب ، وتعريفه بأن ما ينسبه إلى التطور الذاتي ، وإلى المصادفات ، هو الله وحده ، فهو : " قصر قلب " .

القسم الرابع : أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهاً لمن يراد إزالة تردده وشكه ، هل المقصور منسوب إلى المقصور عليه ، أم إلى غيره ؟ ويسمي البلاغيون هذا : " قصر تعيين "

مثاله : يسأل متردد شاك : هل لفظ الكسوف يستعمل لاختفاء ونقصان ضوء الشمس ، أو نور القمر ؟ فنقول له : " لا يستعمل لفظ الكسوف إلا للشمس ، أما ما يحدث للقمر فيسمى الخسوف " هذا قصر إضافي ؛ لأن كلمة الكسوف تستعمل لمعان أخرى غير ما يحدث للشمس ، وهو قصر الصفة على الموصوف ، ويراد منه إزالة الشك وتردد من يوجه له القول بتعيين المقصور عليه ، فهو " قصر تعيين " .

من هذا كله يرى البلاغيون : أن قصر الإفراد ، وقصر القلب ، وقصر التعيين ، أقسام للقصر الإضافي فقط ، إلا أني لست أرى هذا ، ففي الأمثلة التي أوردتها للأقسام ، منها ما هو قصر حقيقي ، ومنها ما قصر إضافي .

فالأقسام الأربعة السابقة نستطيع أن نعتبرها أقساماً للقصر بوجه عام ، وحال المقصود بتوجيه الكلام له ، هي التي تردد كون القصر قصر إعلام ابتدائي ، أو قصر إفراد ، أو قصر قلب ، أو قصر تعيين .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الخاتمة

من خلال دراستنا لموضوع القصر تبين لنا الآتي :

1 . القصر يحدد المعنى تحديدا كاملاً ، ولذا كثيراً ما يستفاد منه في التعريفات العلمية وغيرها .

2 إن القصر يفيد الإيجاز ، فالجملة الواحدة تتضمن حكمين، أحدهما : إثبات ، والآخر: نفي.

3 . المبالغة : وأكثر ما تكون في القصر الادعائي ، حيث ينزل المتكلم - ما عدا المقصور عليه - منزلة المعدوم مبالغة في اقتصار المقصور بالمقصور عليه ، كقولك : " لا عالم في النحو إلا سيبويه ، ولا بالبلاغة إلا عبد القاهر " مع أن المشتغلين بالنحو والبلاغة كثيرون ، إلا أنك ادعيت أن من عدا سيبويه في النحو ، وعبد القاهر في البلاغة ، لا يعتد بهم بالقياس إليهما ، مبالغة في كمال هاتين الصفتين بهما .

4 . التعريض : وذلك حينما يستعمل أسلوب القصر في حكم معلوم للمخاطب ، فلا يكون الغرض إفادة المخاطب حكما يجهله ، وإنما يكون الغرض التعريض بمعنى آخر يفهم من السياق والمقام .

5 . إن القصر الحقيقي والتحقيقي يختص فيه المقصور بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره مطلقاً فيكون فيه النفي عاما لكل ما عدا المقصور عليه ، كقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وهذا جار في التحقيقي ما كان في الحقيقة والواقع ، بأن تطابق النسبة الكلامية، والنسبة الخارجية مطابقة تامة .

6 - القصر الادعائي هو القصر المبني على المبالغة ، أو القصر المجازي ، كما يسمى في دراسة بلاغة القرآن الكريم ، تحاشياً من وصف القرآن بالادعاء والمبالغة ، وهذا القصر لا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع ، فالنسبة الكلامية لا تطابقها النسبة الخارجية مطابقة دقيقة ؛ لأن فيها مبالغة .

7 - القصر الإضافي : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء آخر معين ، أي بالإضافة إليه ، بأن لا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى ذلك الشيء المعين ، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم بالرسم العثماني كما يوافق مصحف المدينة المنورة من حيث الرسم وعلامات الوقف .

1 ـ الإتقان في علوم القرآن . للإمام جلال الدين السيوطي . بهامشه إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني . الطبعة بلا . دار مكتبة الهلال . بيروت لبنان . التاريخ بلا .

2 ـ البرهان في علوم القرآن . بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . قدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا . الطبعة بلا . دار القلم . بيروت لبنان . التاريخ بلا .

3 ـ التحرير والتنوير . تأليف محمد الطاهر بن عاشور . الطبعة بلا . الدار التونسية للنشر . تونس . 1984 م .

4 ـ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم . د. عبد العظيم إبراهيم المطعني . الطبعة الثانية . الناشر مكتبة وهبة . القاهرة . 1428 هـ 2007 م .

5 ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب . للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين البكري الرازي . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . 1421هـ . 2000 م .

6 ـ الوصف في القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ تأليف د . موسى سلوم عباس الأمير ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة : الأولى ـ 1428 هـ ـ 2007 م .

7 ـ إعجاز القرآن وعلم المعاني ــ د . عمر الملاحويش ــ مكتبة الفلاح ــ الكويت ــ الطبعة : الأولى ــ 1407 هـ ــ 1986 م .

8 ـ إعراب القرآن الكريم وبيانه ـ محيي الدين الدرويش ـ دار ابن كثير دمشق ـ بيروت ـ اليمامة ـ دمشق ـ بيوت الطبعة التاسعة ـ 1424 هـ ـ 2003 م .

9 ــ تفسيرالكشاف ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ دار الكتاب العربي ــ الطبعة بلا ـ التاريخ بلا

10 . تفسير القرطبي . محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي . تحقيق أحمد بن عبد العليم البردوني ــ الطبعة الثانية . مكتبة الشعب بالقاهرة . 1372 هـ .

11 ـ تفسير المراغي . تأليف أحمد مصطفى المراغي . خرج آياته واحاديثه باسل عيون السود . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . 1418هـ . 1998 م .

12 ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ـ تأليف : أحمد الهاشمي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت لبنان ـ الطبعة بلا ـ التاريخ 1960 م

13 ـ حاشية الدسوقي ـ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ـ على مختصر سعد الدين التفتازني ـ تحقيق د . خليل إبراهيم خليل ــ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 1423 هـ ـ 2002 م .

14 ـدراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ـ د . أحمد جمال العمري ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ الطبعة : بلا ــ 1406 ــ 1986 م .

15 ـ دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني . علق عليه محمد رشيد رضا . الطبعة الثالثة دار المعرفة . بيروت لبنان . 1422هـ . 2001 م

16 ـ دلالات التراكيب ــ دراسة بلاغية ــ د . محمد محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة ـ الطبعة الثانية ـ 1408 هـ ـ 1984 م .

17 ـ مفتاح العلوم . أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي . تحقيق د. عبد الحميد هنداوي . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . 1420 هـ . 2000 م .

18 ــ من بلاغة القرآن الكريم ـ تأليف د . أحمد أحمد بدوي ـ دار نهضة مصر للنشر ـ الطبعة السادسة ـ 2011 م .

19 ــ موسوعة أطراف الحديث ــ إعداد أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان ــ الطبعة بلا ـ التاريخ ـ بلا .

تم بحمد الله وتوفيقه